

﴿ باب العقائد من الأُمالي الدينية ﴾ (*) -

: الدرس ٣٧ في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام

(المسألة ١٠٣) حكمة ظهور الاسلام في العرب : نذكر هنا كلمة من

مقالة (إعادة مجد الاسلام) التي كتبناها في الجزء الرابع من المجلد الثالث وهي :

« كان العالم الانساني قبل ظهور الاسلام في غمرة من الشقاء والتفاسد

وظلمات من الفتن وفساد الأخلاق وتداعي أركان المدينة السابقة وصدع

بنيانها فأراد الحي القيوم ان يحيي هذا النوع حياة طيبة ويقيم بناء مدينته

على أساس من الحكمة ليثبت ويبقى الى ما شاء الله تعالى ويبلغ به الانسان

كماله المستعد هو له في أصل الفطرة القويمة فأظهر له جل ثناؤه الاسلام

في الأمة العربية فحماته وطافت به العالم المستمد لقبوله بما سبق له من

المدينة فما كان الا كدمع البصر أو هو أقرب ، حتى عم نوره المشرق

والمغرب ، ودخل الانسان في طور جديد وأقام أركان مدينته على أحسن

جديدة ثابتة لا تززع ولا تتزل مادامت الارض والسماء سما .

وكيف تتزل نواميس الفطرة أو تزول سنن الخليقة وقد أخبر مبدعها

الحكيم الخبير بأنها محفوظة من التبديل والتحويل

« لماذا اختار الله الأمة العربية لهذا الاصلاح على سائر الامم ؟

اختارها وهو أعلم لأسباب ووجوه

(-) نشر الدرس السادس والثلاثون في الكراسة ٤٢ من المجلد الخامس (ص

٣٣٦) وشغلنا بعد ذلك بمقالات الاسلام والنصرانية وأم القرى مع التفسير عن تابع

مقالات العقائد . وكان ذلك الدرس في نبوة خاتم النبيين والحاجة الى عمومها

والاستعداد العام لها ووعدنا فيه ببيان حكمة كونه من العرب وبيان ارتقاء الدين من

كلام الانبياء الامم وهذا الثاني قد ذكرنا في غير الأُمالي فلا نعيد

« (أحدها) أنها كانت وسطا بين الأمم التي سبقت لها المدينة والبلاد التي أقيم فيها من قبل بناء الحضارة وهي بلاد مصر وسوريا والجزيرة والعراق وفارس حيث كان التمدن الكلداني والاشوري والبابلي والفارسي والفينيقي والمصري واليوناني والروماني فيسهل عليها عليها بذلك ان ترمي بذور المدينة في الارض القابلة وتلقي مبادئ الإصلاح في النفوس المستعدة

(ثانيها) أنها كانت - ولا مدينة لها سابقة (معروفة) - اشد استعدادا من تلك الأمم التي سبقت لها المدينة لمبدأ الإصلاح الاسلامي الجديد ووضع اساسه الاول وهو استقلال الارادة واستقلال الفكر والرأي لانه لم يكن لها رؤساء في الدين والسياسة يحكمونها بالجبروت والاستبداد فتفنى إرادتها في إرادتهم ، وتتلأشى آراء افرادها في آرائهم ، فلا يرجع اليهم أحد قولا ، ولا يملك لنفسه من دونهم ضرا ولا نفعا ، وأما تلك الأمم فقد كان المرؤسون فيها ذائنين في رؤساء الدين والدنيا حتى لم يبق لهم إرادة ولا فكر ولا رأي الا ما ينفذ إرادة الرؤساء ويمثل أفكارهم وآراءهم (ومن هنا تفهم حكمة ظهور الاسلام بمظهر السيادة وتناية خلفائه بالفتح والاستيلاء وهي ازالة ذلك السلطان الفاشم والاستبداد القاهر ليكون الناس أحرارا قويا يمتقدون ولهم بعد ذلك الخيار في الاسلام وعدمه إذ «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» وزال المانع من طريق الادراك والفهم)

« (ثالثها) أن رقة الوجدان وقوة الفهم والادراك كانتا بالفتن فيها درجة الكمال بمجرد سلامة الفطرة . وأمة هذا شأنها تكون أقبل الأمم

لدين الفطرة الذي جاء يخاطب العقل والوجدان معاً ويمحو من الكون أثر التقليد الاعمى ويطمس رسومه ، وتكون أسرع انفعالاً بالاثورات ، وأشد تمسكاً بالمتقدات ،

« (رابعها) أنه كان عندها من عزة النفس وشدة البأس وكمال الشجاعة والحرية الشخصية وما يتبع هذا من الفضائل ما يحملها على حفظ مآثقتها حقاً والاستماتة في المدافعة عنه على حين أمات نفوس الامم الاخرى وذهب بارادتها متواتر عليها من الظلم والاضطهاد أحقاباً طويلة حتى سهل عليها مشايمة الظالمين على خذل الحق وتأيد الباطل كما هو واقع في غير أهل البادية من المسلمين لهذا العهد . وهذا الوجه يقرب في المعنى من الوجه الثاني

« (خامسها) أنه لم يكن عند العرب من التقاليد الدينية شيء يستندون فيه على وحي سماوي وعلى سلف من الانبياء أو الحكماء والربانيين فيدافع ما جاء به الاسلام أو يزاحمه . وإنما كان عندهم الشرك في العبادة الذي يسهل إبطاله بالبرهان ، على وجه يقبله العقل وينتمل له الوجدان ، إذا وجد استقلال الفكر والرأي وكذلك كان » اهـ

وزيد الآن سبباً سادساً هو السبب الاظهر ، والوجه الانور ،

ونذكره على النسق السابق فنقول

(سادسها) كون العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ولم تمارس

الاحكام السياسية والمدنية والقضائية . وبيان هذا من وجهين - أحدهما

مأنهم من الاسباب السابقة وهو وجوب كون الاصلاح الجديد الذي

احتاجته الامم كلها غير مشوب بشيء من أمشاج الاديان والمذنبات

السابقة لازتلك الأديان قد انطست وجوهها وتلك المدنيات قد انقلبت الى ترف مفسد وبهيمية محضة . فلو ظهر الإصلاح في أهلها لصددهم عنه ما هم فيه ولضاع الزمن الطويل في مكافحة الجديد للقديم وكانت الاقوام قد تقيدت بما هي فيه حتى لا طريق لخروجها منه الا قارعة من دونهم تحل بهم فتزلزل ما هم فيه زلزالاً .

كانت تلك الامم تقيم بناء مدنيتهما على اركان الدين والعلم والسياسة المنتظمة وأحكامها وهذه هي أركان السعادة البشرية في هذه الحياة ولكنها اساءت استعمالها فلفحها هجير الشقاوة فكانت من تلك الأركان في ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يفتني من الذهب ، بل كان كل ما حل بها من الشقاء هو من دخان ذلك الظل الذي ذهب بكل نور ، فالاديان كانت قد انقلبت وثنية تفضل العقول ، وتذل النفوس ، والمعلوم كانت وسائل الترف ، وذرائع السرف ، والاحكام كانت سوط البغي والعتو ، وسيف القهر والعلو ، فكانت جميع آلات الرقي ، آلات للتدلي والهوي ،

وكانت العرب في ايمان ذلك خلوا من كل ذلك ولكنها كانت على جهلها وفساد أخلاقها ترتقي في بداوتها ارتقاء فطرياً ، وتستعد لقبول الهداية استمداداً طبيعياً ، حتى اذا جاءها العلم والإصلاح كانت كما قيل :

أتاني هواها قبل ان أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتسكننا

(والوجه الثاني) وهو اوجه الوجوه وأظهر الاسباب والمكتم ظهور الآيات الكبرى والحجة العظمى - ظهور العلم الأعلى ، والتعليم الاجلي ، على يد أمي نشأ في الاميين ، وترتب بين الجاهلين ، ولونشأ في أمة من تلك الامم لقليل انه عالم نصح العلوم وهدبها ، وحرر الشرائع وشذبها ،

وحكيم نظر في تاريخ البشر ، فاستخرج منها الحكم والعبير ، «وما كنت تلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون»

(م ١٠٤) حال النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته: لم يكتب الكاتبون في هذا المقام مثلاً كتبه في رسالته الاستاذ الامام ذلك أنه بين ما كانت عليه الامم قبل البعثة من الفساد والشور ثم قال :

« أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي اليه رسالته . ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغم ، التي أضلت رؤس جميع الامم ؟ نعم كان ذلك والله الامر من قبل ومن بعد

« في الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول عام الفيل (٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطالب ابن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيماً توفي والده قبل ان يولد ولم يترك له من المال الا خمسة جمال وبعض نماج (١) وجارية ويروى أقل من ذلك وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطالب وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهياً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصبية قومه كاحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معا وفقراً لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يتم تلي تربية مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين ارباب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الاوهام ، وأقرباء من حفدة

(١) قبل خمس وقيل تسع

الاصنام ، غير انه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين . أدب الهوي لم تجر المادة بأب تزين به قوس الايتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوام . فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون ، رفيعا والناس منحطون ، موحدوا وهم وثنيون ، سلما وهم شاعبيون ، (١) صحيح الاعتقاد وهم واهيون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون ،

« من السنن المعروفة ان يتيا فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينيبه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده . فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم . وأخذ بمذاهبهم . الى أن يبالغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهد (٢) ولكن الامر لم يجر على سنته بل انحلت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فمما جلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليفة ، وما جاء في الكتاب من قوله « ووجدك ضالا فهدى » لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك لهو الافك الممين . وانما هي الحيرة تلم بتلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطالب السبيل

(١) استشهد له بقصة اختلاف القبائل ايهم يضع الحجر الاسود في موضعه

يوم بناء الكعبة وكادوا يقتلون لولا ان اصاح بينهم بما ارضاهم جميعا (٢) كامية

ابن أبي الصلت وعمرو بن قنيل

الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين، وارشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتفريده شريعته ،

« وجد شيئاً من المال يسد حاجته ... وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه مميسته - بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجها لها وكان فيما يجتنيه من ثمره عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه اعظم قومه . لكن لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها ، ولا يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول الى ما ترغبه الا تقس من نعمها ، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الناس كافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الاعظام في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه ، الى أن اقتق له الحجاب عن عالم كان يحته اليه الالهام الالهي ، وتجلي عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام الالهي ، في تفصيل ليس هذا موضعه

« لم يكن من آباءه ملك فيطالب بما ساب من ماله وكانت تروس قومه في انصراف تام عن طالب مناصب الساطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دل عليها ما فعل جده عبد المطالب عند زحف ابرهة الحبشي على ديارهم . جاء الحبشي لينتقم من العرب بهمدم معبدهم العام ، وييتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من آلتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيها لمبد المطالب مئتا بغير وخرج عبد المطالب

في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال: هي أن ترد إليّ مثني بغير أصبتها لي: فلامه الملك على المطالب الحقيق، وقت الخطب الخطير، فأجابته: أنا رب الأبل أما البيت فله رب يحميه: هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام وعبد المطالب في مكانه من الرياسة على قريش فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً؛ لا مال لا جاه لا جند لا أعوان لا سليقة في الشعر لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة،

«ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس، ما الذي أعلى رأسه على الرؤس، ما الذي سما بهمة على الوهم، حتى انتدب لارشاد الأمم. وكمألتهم كشف النعم بل وإحياء الرمم؟ ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاع من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم، ما كان ذلك إلا وجدانه ربح العناية الإلهية ينصره في عمله، ويعمده في الانتهاء إلى أملة، قبل بلوغ أجله، ما هو إلا الوحي الإلهي يسمى نوره بين يديه فيضي له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل، ما هو إلا الوعد السماوي، فام لديه مقام القائد والجندي، أرايت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد، والاعتقاد بالعلي المجيد والكل ما بين وثنية مفرقة ودهرية وزندقة.

«نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبد معبوداتهم وفي المشبهين بالمنتمسين في الخلط بين اللاهوت الإقدس وبين الجسائيات بالتطهر من

تشبيهم وفي الثانوية بافراد اله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه * اهاب بالطيبين ليمدوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنورا سر الوجود الذي قامت به * صاح بنوي الزعامة ليبتلوا الى مصاف العامة في الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقباض على ارواحهم في هياكل اجسادهم * تناول المتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى فيبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي ان نسبة اكبرهم الى الله كنسبة اصغر المعتقدين بهم وطلبهم بالنزول عما اتجاوه لا تقسمهم من المكائات الربانية ، الى ادنى سلم من العبودية ، والاشترائك مع كل ذي نفس انسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم او فضيلة * وخز بوعظه عبيد الطادات واسراء التقليد ليقتقوا ارواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا اغلالهم التي اخذت بايديهم عن العمل ، وقطعهم دون الامل * مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما اودعته من الشرائع الالهية فبكت الواقفين عند حروفها بنباوتهم . وشدد النكير على الحرفين لها الصارفين لالفاظها الى غير ما قصد من وحيا اتباعا لشهواتهم . ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم * ولقت كل انسان الى ما اودع فيه من المواهب الالهية ودعا الناس اجمعين ذكورا واناثا عامة وسادات الى عرفان انفسهم وانهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبمخرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره وان الله عرض عليهم جميع ما بين ايديهم من الاكوان وساطعهم على فهمها والاتماع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال

والوقوف عند حدود الشريعة المأدلة والفضيلة الكاملة. وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد الا من خصهم الله بوحيه. وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة الى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده. وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه الا مارسته الشريعة وفرضه المدل ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة * دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك من عالمين متخالفين وان كانا متمزجين وأنه مطالب بخدمتهما جميعا وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق * دعا الناس كاذبة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى وبين لهم أن خير زاد يتزوده المامل هو الاخلاص لله في العبادة والاخلاص للمباد في المدل والنصيحة والارشاد

* * *

«قام بهذه الدعوة المظمى وحده ولا حول له ولا قوة - كل هذا كان منه والناس أحياء مألّفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة. أعداء ماجهاوا وان كان رغد العيش وعز السيادة ومنتهى السعادة. كل هذا والقوم حوالية أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون دعوته. ولا يعقلون رسالته. عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة. وحجبت عقول الخاصة بفرور العزة عن النظر في دعوى فقير امي مثله لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

« لكن في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضاهم بالدليل
ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبهم للعبر ويحوظهم مع ذلك
بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر في حكمه عادل في أمره ونهيه
أواب حكيم في تربية ابنائه شديد الحرص على مصالحهم رؤف بهم في
شدته رحيم في سلطته

« ماهذه القوة في ذلك الضعف : ماهذا السلطان في مظنة العجز ؟
ماهذا العلم في تلك الامية : ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ إن هو
إلا خطاب الجبروت الاعلى . قارعة القدرة العظمى . نداء العناية العليا ذلك
خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلما * ذلك
نداء أمر الله الصادع يهرع الآذان وينشق الحجب ويمزق الغلاف وينفذ
الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه به وهو أضعف
قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة بريئا من
التهمة لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه

« أي برهان على النبوة أعظم من هذا : أمي قام يدعو الكاتين
الى فهم ما يكتبون وما يقرؤون : بعيد عن مدارس العلم ساح بالعلماء
ليمحصوا ما كانوا يملكون في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء *
ناشي بين الواهمين هب لتقويم توج الحكماء * غريب في أقرب
الشوب الى سداجة الطبيعة وإبدها عن فهم نظام الخليفة والنظر في
سننه البديمة . أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة . ويخطط للمادة طرقا
لن يهلك سالكها . ولن يخلص تاركها .

« ماهذا الخطاب المفهم : ما ذلك الدليل الملجم ؟ أقول « ماهذا

بشرا ان هذا الامك كريم» ؛ لالا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه : نبي صدق الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالاته بما يلهي الابصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام وساطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحججة وآية الحق الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » اهـ

الكرامات والحواريق

تممة المقالة المباشرة

(المسألة الخامسة والعشرون) ذكر الشيخ الاكبر في فتوحاته أن الكرامة على قسمين كرامة حسية كالثبي على الماء وكرامة معنوية وهي التوفيق لسكالم الحفاظة على حدود الشريعة ظاهراً وباطناً وما ينشأ عن ذلك من العلوم والمعارف الالهية . وذكر ان الاكبر لا يحنلون بالكرامات الحسية وأن اعظم كرامة عندهم العلم بالله تعالى والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولاي شيء وضمت حتى يكون الانسان من امره على بصيرة من حيث كان فلا يجهل من نفسه ولا من حركانه شيئاً . بل قال : إن الكرامة ليست الا العلم اما المعنوية نظاهر ان العلم بداهاتها وثمرتها واما الحسية فانه يشترط ان تكون بتعريف الهى وهو عين العلم : وتقول ان هذه الكرامة المعنوية لا ينكرها احد وكذا نفع وليس فيها ضرر ولا خداع فان العلم نور لاظامة فيه . والولى المحمدي لا يابق به التعميل على غير هذه الكرامة فان آية نبيه الكبرى معنوية والكرامة قبس من نور المعجزة كما يقولون

(المسألة السادسة والعشرون) ذكر الشيخ الاكبر في فتوحاته ايضاً أن الحواريق التي تحصل على ايدي الصالحين تد يكون فيها مكر خفي واستدراج . وشرط لصحة كونها كرامة اكرم الله بها العبد لامكراً به ولا استدراج له ان